في بلاط المتنبي

مقالات للأستاذ:

محمد ولد إمام

منشورة في كتاب "كشكول الحياة"

أود أن أشير هنا إلى أنني في هذه القراءات، إنما أصدر عن هوىً خالصٍ في نفسي وطربٍ للشعر، فلم أكتبها لأنال شهادةً أكاديميةً في الأدب أو النقد، وليس هذا تخصصي الأكاديمي، ولم أكتبها لنيل جائزة في البحث، وإنما هي خواطر محب شُغف بالشعر الجميل، وأحب أن يشارك تجاربَه وقراءاتِه مع الناس، والغريب، كما قلت مرارا، هو أنني لم "أُدرّس" المتنبي في الدراسة التقليدية "المحظرة" ولا في الدراسة النظامية بعد ذلك، عكسَ بعض الشعراء الآخرين، مثل شعراء الجاهلية الستة (في صباي تم تحفيظي دواوينهم قسرا، وما زلت أحفظ أغلبها إلى اليوم، وكذلك ديوان الحماسة فيما يسمى قديما بالزرگ وهو تمارين على الإعراب بالشعر حيث نعرب الأبيات ثم نحفظها)..

وقد دونت هذه الدواوين في دفاتر وصحف متفرقة (تسمى عندنا الكنانيش جمع كنّاش أي كشكول من صفحات متفرقة) ولاحقا قمت في إطار مشروع رقمنة التراث برقمنة ثلاثة من كنانيشي الخاصة وإتاحتها للجميع على موقع الأرشيف.. (رابطها في الفهرست)

ورغم أن أبا الطيب لم يُفرض علي ولم يكن يوما جزءا من تكويني ولا تدريسي يجب علي حفظه أو دراسته، إلا أنني أحفظ ديوانه تقريبا كاملا، لا عن

قصد ونية، وإنما لاستحسانه والطرب له، فأجدني أكرره بيني وبين نفسي وهكذا يرسخ في ذهني، مع تأمله وتذوقه.

ولعل من أول ما لاحظته من قراءاتي لديوان المتنبي أنني عندما أطالع تراجم الرجل أرى شخصاً مختلفاً عن الشخص الذي أجده عند قراءة الشعر، ولأسباب عديدة، أُقدّمُ الشعرَ على الأخبار التي أرى في معظمِها تحاملاً غيرَ خفي.

ثم إن الشعر في حد ذاته وثيقةٌ تاريخية مقدَّمة على آراء المعاصرين ومن تبعهم، فهم أصحابُ أغراضٍ وأهواء، وكما قيل فالمعاصرة تمنع المناصرة..

وقد تعرفتُ عن قرب على شعر المتنبي في وقت متأخر نسبياً، حيث كان أول احتكاك لي بالشعر عن طريق الكُتّاب التقليدي (المحظرة)، حيث بدأتُ بالشعر الجاهلي عبر دواوين الشعراء الستة الجاهليين، كما أسلفت، ومن ثم مقطعات من ديوان الحماسة وبعض الأشعار المحلية، وكانت هذه النصوص تُفرضُ علي فرضاً لا تذوقاً ولا اختياراً مني، عكس شعر المتنبي.

أذكر أن الأديب المازني كتب في "حصاد الهشيم" ملاحظة تصدقُ عليّ أيضاً حيث قال إن ديوان أبي الطيب لم يكن مقرراً عليه ولا في مكتبته حتى، ورغم ذلك فهو يحفظ له أكثر مما يحفظ لأي شاعر آخر!

وفي بيئتي لم يكن ديوان أبي الطيب متداولاً ولا مما يُدرس للصغار في الكتاتيب عندنا، فلم أتعرف عليه إلا وأنا شاب، ولكنه كان عشقاً من أول

نظرة كما يقولون، فمنذ أول قراءة لقصائده وأنا مولع بها، حتى إنني حفظت أغلبه من دون أن أدري أو أنوي ذلك!

بل كانت قصائده لجودتها تفرض نفسها عليّ فرضاً وتظل معششةً في فكري حتى أجدني أرددها وقد حفظتها..

ومن خصائص شخصية المتنبي الظاهرة في شعره هي قوميته البارزة، وتوجعه لما حل بالأمة العربية في ذلك العهد الموسوم بالاضطراب السياسي، حيث استحوذ الأغراب والأعاجم على مفاصل الدولة الإسلامية، وأصبح خلفاؤها خواتم في أيديهم، وكان أبو الطيب يرى ما هم فيه من الذل والتشرذم والاستخذاء، فكان ذلك يؤلمه أيما إيلام، فهناك الديلم والتنوخيون والإخشيد والترك، وكلهم يحكم جانباً من أرض الخلافة، وأخذ أبو الطيب على عاتقه إدالة "دولة الخدم" هذه كما يسميها.

ورغم أن أبا الطيب في بعض يأسه قد مدح بعضَ هؤلاء الأعاجم، مثل الأمير بن طغج وكافور بعد ذلك وغيرهم، إلا أنه كان مدحا أقرب للرُّقى كما قال هو، والمتأمل لقصائده في هؤلاء الأعاجم، يجد فيها كثيراً من الإشارات التي لا تخفى على ذي لب من ذمّ للدهر وأهله، ومن استعلاء وفخر لا يخلو من تعالٍ عليهم، وكان ذلك منه اضطراراً كما أرى، وكما أشار هو، في اعتذاره للأدب والشعر، عندما قال:

وشعرٍ مدحتُ به الكركدنَّ *** بين القريض وبين الرُّقى
فما كان ذلك مدحاً له *** ولكنه كان هجوَ الورى

إن المتنبي لم يكن يمدح بالمعنى التقليدي بل كان كأنه يصبغ خصاله أو يخلعُها على الممدوح، وذلك غالباً بعد أن ينوه بنفسه وبمكانته ومجده، وأعتقد أنه يختلف حسب الممدوح، فإذا كان أعجمياً أطنب المتنبي في إبراز خصاله هو ومدح نفسه الكريمة قبل ممدوحه ولعله أيضا يشير ضمنيا بذلك إلى ما يجب أن يكون عليه القائد عموما ليستحق القيادة.

فهو يمدح نفسه ثم قصيدته، ثم ما يجب أن يكون عليه القائد أو الشخصية المجيدة عموماً.

فلهذا المدح أكثرُ من وظيفة فهو توجيه في طيه ملامٌ أحيانا، وهو أيضا إسقاطٌ لما يراه هو في نفسه على ممدوحه، وهو أيضا رأيُه فيما يجب أن يتحلى به الزعماء..

وفي بداياته قصائد رائعة حقا رغم أنه قالها وهو صغير جدا حسب الرواة، مثل داليته التي مطلعها:

أهلاً بدارٍ سباك أغْيدُها أبعد ما بان عنك خُرَّدُها..

ويكفي أن تقرأ مطلعها الغزلي الرقيق حتى تعرف أنك أمام شاعر مختلف:

قِفَــا قَلــيلاً بهــا عَليّ فَــلا أقَــلّ مِــنْ نَظْــرَةٍ أُزَوِّدُهَــا
فَفي فُـؤادِ المُحِـبّ نَـارُ جَـوًى أحَــرُّ نَــارِ الجَحــيمِ أبْرَدُهَــا
يَــا عَاذِلَ العَاشِــقِينَ دَعْ فِئَــةً أضَــلّهَا الله كَيــفَ تُرْشِــدُهَا؟
لَـيْسَ يُحِيـكُ المَـلامُ في هِمَـمٍ أقْرَبُهَـا مِنْـكَ عَنْـكَ أبْعَـدُهَا

ثم قف عند هذا الوصف الطريف لناقته التي هي في الحقيقة نعله!

لا نَاقَتي تَقْبَلُ الرّدِيفَ وَلا بالسّوْطِ يَوْمَ الرّهَانِ أُجْهِدُهَا

شِرَاكُهَا كُورُهَا وَمِشْفَرُهَا زِمَامُهَا وَالشُّسُوعُ مِقْوَدُهَا..

فقد أخذ صفات الناقة واستعارها لنعله كما ترى، وهذه الفكرة تكررت في قصيدته المسماة الدينارية (مع شكي في تلك القصة):

وحُبِيتُ من خُوصِ الرّكابِ بأسوَدٍ من دارِشٍ فغَدَوْتُ أمشي راكِبَا..

فهو يقول إنه استعاض من الركائب بجلد أسود يعني حذاءه، فصار يمشي وهو راكب!

وهي قصيدة مشهورة جدا فلا نحتاج التوقف عندها كثيرا..

ومن الظواهر المتكررة كثيراً في شعر أبي الطيب الشكوى من الدهر وأهله ومصائبه، فالرجل لقي الكثير من سوء الحال والحسد والعداء والتآمر عليه، كما

قال:

رَماني الدّهرُ بالأرزاءِ حتى فُؤادي في غِشاءٍ مِنْ نِبالِ

فَصِرْتُ إذا أصابَتْني سِهامٌ تكَسّرَتِ النّصالُ على النّصالِ...

وكذلك:

وقِلّةِ ناصِرٍ جُوزِيتَ عني بشَرٍّ مِنكَ يا شَرّ الدّهورِ

عَدُوّي كُلُّ شيءٍ فيكَ حتى لخِلْتُ الأُكْمَ مُوغَرَةَ الصُّدورِ

فلَوْ أنّي حُسِدْتُ عَلى نَفيسٍ لجُدْتُ بهِ لِذي الجَدِّ العَثُورِ..

وتأمل معي بيته هذا:

لَيتَ الحَوَادِثَ باعَتني الذي أخذَتْ مني بحِلمي الذي أعطَتْ وَتَجرِيبي

فهو يريد الزمن أن يبعه السعادة وخلو البال بكل ما أعطاه من حكمة وتجارب، وكأنه يتمنى أن يكون شخصا عاديا لا له ولا عليه خليا مرتاح البال وليذهب الدهر بما أعطى من تجريب وحكمة!

ويكفي أن تقرأ هذه الأبيات لتدرك مرارة حياة الرجل وعصره:

فُـــؤادٌ مـــا تُسَـــلّيهِ المُـــدامُ وعُمْـرٌ مثـلُ مـا تَهَـبُ اللِّئـامُ

ودَهْـــرٌ ناسُـــهُ نـــاسٌ صِـــغارٌ وإنْ كانتْ لهـمْ جُثَـثٌ ضِـخامُ

وما أنا مِنْهُمُ بالعَيشِ فيهم ... ولكنْ مَعدِنُ الذّهَبِ الرَّغامُ
أرانِبُ غَيرَ أنّهُمُ مُلُوكٌ ... مُفَتَّحَةٌ عُيُونُهُمُ نِيَامُ
خَليلُكَ أنتَ لا مَن قُلتَ خِلّي ... وإنْ كَثُرَ التّجَمّلُ والكَلامُ
وشِبْهُ الشيءِ مُنجَذِبٌ إلَيْهِ ... وأشْبَهُنَا بدُنْيانا الطَّغامُ

ولا شك عندي أن أبا الطيب كان طُلَعةً فقد روى الرواة أنه كان يقيم في دكاكين الوراقين (المكتبات) ويبيت فيها يطالع الكتب، يقول عنه وراق: "ما رأيت أحفظ من ابن عبدان (لقب أبيه كما يدعي الرواة)، كان عندي اليوم وقد أحضر رجل كتاباً نحو ثلاثين ورقة ليبيعه، فأخذ ابن عبدان ينظر فيه طويلاً، فقال له الرجل: يا هذا أريد بيعه، وقد قطعتني عن ذلك، فإن كنت تريد حفظه فهذا يكون، إن شاء الله، بعد شهر. فقال له ابن عبدان: فإن حفظته في هذه المدة، فما لي عليك؟ قال أهدي لك الكتاب. قال، فأخذت الدفتر من يده، فأقبل يتلوه، حتى انتهى إلى آخره". وتقول الحكاية إن المتنبي أخذ الكتاب ومضى بمباركة صاحبه.

وهذه المطالعة أكسبت أبا الطيب ثقافةً واسعة تجدها جلية في شعره،

ومَن طالع "الرسالة الحاتمية" سيدرك مدى اتساع ثقافة الرجل الفلسفة، ومدى اطلاعه على الفلسفة اليونانية الأرسطية خصوصا.. كما نراه يذكر المانوية وهي فرقة ليست مشهورة ترى أن النور خير كلُّه وأن الظلام شر كلُّه:

وَكَمْ لظَـلامِ اللّيْـلِ عِنـدَكَ مـن يَـدٍ تُخَـــبِّرُ أنّ المَانَوِيّـــةَ تَكْـــذِبُ
وَقَاكَ رَدَى الأعـداءِ تَـــسْري إلَيْهِـمُ وَزَارَكَ فيـــهِ ذو الدّلالِ المُحَجَّـــبُ

وكذلك تجد آثار هذه الثقافة وتلك المطالعات في رائيته لابن العميد حيث يقول:

مَـــنْ مُبلِـــغُ الأعـــرابِ أنّي بَعْـــدَها جالَســـتُ رِســـطالِيسَ وَالإســـكَندَرَا
وَسَـــمِعْتُ بَطليمـــوسَ دارِسَ كُتبِـــهِ مُـــــتَمَلّكاً مُتَبَـــــدّياً مُتَحَـــــضّرَا
وَلَقيـــــتُ كُلّ الفَاضِـــــلِينَ كأنّمَـــــا رَدّ الإلهُ نُفُوسَـــــهُمْ وَالأعْـــــصُرَا

وأعتقد جازما أن علاقة أبي الطيب بسيف الدولة وبفاتك بعد ذلك كانت علاقة حب وصداقة وإعجاب متبادلة، ولم تكن مجرد علاقة شاعر بأمير أو وال.

واقرأ معي قصائده فيه وستلاحظ معي أمرين، أولهما تخفيفُه من الغلو والمغالاة في الفخر، والذي قدّمنا أن ذلك كان لحاجة في نفس الرجل خصوصاً عندما تجبره الظروف على مدح من هو دونه أو على الأقل يراه دونَه، ولا أمرَّ ولا أمضّ من ذلك، والأمر الثاني هو صدق العاطفة، ويكفي أن تعلم أن المتنبي قد مدح

سيف الدولة بعد عودته من مصر في آخر أيامه، وتعلم أيضاً أن سيف الدولة بعث لأبي الطيب هدايا ودعاه للعودة إليه، واقرأ لامية أبي الطيب الرائعة:

مَا لَنَا كُلُّنَا جَوٍ يا رَسُولُ *** أنَا أهْوَى وَقَلبُكَ المَتْبُولُ.

وسنورد منها أبياتاً قمة في الروعة وإن كانت القصيدة كلها غاية في الحسن، يقول في أولها:

وَالمُسَمَّوْنَ بالأمِيرِ كَثِيرٌ ... وَالأمِيرُ الذي بها المَأمُولُ
الّذِي زُلْتُ عَنْهُ شَرْقاً وَغَرْباً ... وَنَداهُ مُقابِلِي مَا يَزُولُ

***

لَيسَ إلاّكَ يا عَليُّ هُمَامٌ ... سَيْفُهُ دونَ عِرْضِهِ مَسْلُولُ
كَيفَ لا تأمَنُ العِراقُ وَمِصْرٌ ... وَسَرَاياكَ دونَهَا وَالخُيُولُ
لَوْ تَحَرّفْتَ عَن طَرِيقِ الأعادي ... رَبَطَ السِّدْرُ خَيلَهُمْ وَالنّخيلُ

وهنا أيضاً يظهر لك رأي أبي الطيب الذي يرى أن سيف الدولة هو الحامي والمحامي عن دولة العرب، ولولاه لوصل الأعداء سِدرَ مصرَ ونخلَ العراق!

أنتَ طُولَ الحَيَاةِ للرّومِ غازٍ ... فَمَتى الوَعْدُ أن يكونَ القُفولُ
وَسِوى الرّومِ خَلفَ ظَهرِكَ رُومٌ ... فَعَلَى أيّ جَانِبَيْكَ تَمِيلُ

قَعَدَ النّـاسُ كُلُّهُـمْ عَـنْ مَساعيــ ـكَ وَقامتْ بهـا القَنَـا وَالنُّصُـولُ
مــا الذي عِنْــدَهُ تُــدارُ المَنَايَــا كالّذي عِنــدَهُ تُــدارُ الشَّــمولُ

وتأمل قوله وَسِوى الرّومِ خَلفَ ظَهرِكَ رُومٌ .. تجد ما قلنا من أنّ المتواطئين من الأعراب ومن ملوك العجم لا يقلون خطورة عن الروم في حقدهم وعدائهم لسيف الدولة ولملكه.

واقرأ قوله متحدثا عن فضل سيف الدولة حتى على المشركين الذين كان سببا في هدايتهم:

سَبَقْتَ إلَيْهِمْ مَنَايَاهُمُ ** وَمَنْفَعَةُ الغَوْثِ قَبْلَ العَطَبْ
وَكم ذُدتَ عَنهُمْ رَدًى بالرّدى ** وَكَشّفْتَ من كُرَبٍ بالكُرَبْ..

إلى أن يقول:

أرَى المُسْلِمِينَ مَعَ المُشْرِكِيـ** ـنَ إمّا لعَجْزٍ وَإمّا رَهَبْ
وَأنْتَ مَعَ اللهِ في جانِبٍ ** قَليلُ الرّقادِ كَثيرُ التّعَبْ
كأنّكَ وَحْدَكَ وَحّدْتَهُ ** وَدانَ البَرِيّةُ بابنٍ وَأبْ..

وحتى في معاتباته يظهر الود والندية أحياناً:

أرى ذلكَ القُرْبَ صارَ ازْوِرارَا ** وَصارَ طَوِيلُ السّلامِ اختِصارَا

تَرَكْتَنِيَ اليَوْمَ في خَجْلَةٍ ** أمُوتُ مِراراً ، وَأحْيَا مِرارَا..

فعلى سيف الدولة ألا ينسى أفضال أبي الطيب عليه وما صنع له من صيت وذكر باقيين سارت بهما الركبان،

وَعِنْدي لَكَ الشُّرُدُ السّائِرا ** تُ لا يختَصِصْنَ منَ الأرْضِ دارَا

قَوَافٍ إذا سِرْنَ عَنْ مِقْوَلي ** وَثَبْنَ الجِبالَ وَخُضْنَ البِحارَا

وَلي فيكَ مَا لم يَقُلْ قَائِلٌ ** وَمَا لم يَسِرْ قَمَرٌ حَيثُ سَارَا..

وبالنسبة لفاتك، الذي لقيه في مصر، فيكفيك أن تقرأ مطلع قصيدته الأولى له:

لا خَيْلَ عِنـدَكَ تُهْـديهَا وَلا مـالُ فَليُسْعِدِ النُّطْقُ إنْ لـم تُسـعِدِ الحـالُ

وَاجْزِ الأمـيرَ الذي نُعْمَـاهُ فَاجِئَـةٌ بغَـيرِ قَـوْلٍ وَنُعْـمَى النّـاسِ أقْـوَالُ

فهذا خطابُ نِدّ لنده، ونظيرٍ لمثله، فهو يقول إنه لا خيل عنده ولا مال ليجزي معروف هذا الأمير، والمفهوم أنه لو كان له مال وخيل لما مدح وإنما كان رد المعروفَ بمثله فتأمل! .. وهل في هذا الشطر "وَنُعْمَى النّاسِ أقْوَالُ" إشارة خفية لكافور بعد أن بدأ ييأس منه؟ وستكون بذرة - ربما - لما سيهجو به كافوراً بعد ذلك في قوله:

جودُ الرّجالِ من الأيدي وَجُودُهُمُ *** منَ اللّسانِ، فَلا كانوا وَلا الجُودُ؟

لك أن تحكم في ذلك بما تراه.

واقرأ معي قوله أيضاً:

وَإنْ تكُنْ مُحْكَماتُ الشّكلِ تمنَعُني ظُهُورَ جَرْيٍ فلي فيهِنّ تَصْهالُ
وَمَا شَكَرْتُ لأنّ المَالَ فَرّحَني سِيّانِ عِنْديَ إكْثَارٌ وَإقْلالُ
لَكِنْ رَأيْتُ قَبيحاً أنْ يُجَادَ لَنَا وَأنّنَا بِقَضَاءِ الحَقّ نُخّالُ

ومحكمات الشُّكل، وهي القيود، ربما يقصد بها كافوراً الذي يمنعه من إظهار ما يكنه لفاتك من إعجاب وود..

وفي هذه القصيدة أبيات لا يحسن أن نتخطاها، مثل قوله:

إنّا لَفي زَمَنٍ تَرْكُ القَبيحِ بهِ من أكثرِ النّاسِ إحْسانٌ وَإجْمالُ!
ذِكْرُ الفتى عُمْرُهُ الثّاني وَحاجَتُهُ مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ العَيشِ أشغَالُ..

وفي الشطر الأخير من البيت الثاني ما أراه ملخّصا لمذهب Minimalism الحديث، في الاقتصار على الضروريات وأن كل ما زاد عليها فضول.

أعود لعلاقته مع فاتك لأؤكد هذه الصلة والود المتبادل بين الرجلين حتى إن أبا الطيب رثى فاتكاً في أربع قصائد! ولا يمكن أن يكون أراد منه نائلا ولا أي عَرَض أو غرض مما يريده الشعراء، بل كان يقضي حق الود.

وفي عينيته الكثير من الصدق والروعة، وسأتكلم عنها عند الحديث عن الرثاء بحول الله.

ومما يميز أبا الطيب عندي هو كما أسلفتُ عمق وتنوع وثراء ثقافته التي جمعها من أسفاره وأيضا من مطالعاته الكثيرة، وقد ظهر ذلك في شعره وفلسفته، ولعل أكثر ذلك ورد في ثنايا مراثيه خاصة، حيث يُتاح له التأمل في الحياة وفلسفته فيها، وسأورد بعض هذه التأملات من قصائد مختلفة، ومن قصائده التي لم تكن لمدح ولا رثاء ولا هجاء وإنما لتأمل خالص أبياته الشهيرة:

صَحِبَ النّاسُ قَبلَنا ذا الزّمَانَا *** وَعَنَاهُمْ مِن شأنِهِ مَا عَنَانَا

ولا أُطيل بها هنا لشيوعها، ولكن فيها من الصور المركبة ما يندر أن نجده قبل الشعر الحديث، فقوله:

كلما أنبت الزمانُ قناةً .. ركَّب المرء في القناةِ سِنانا!

فطبعاً القناة هنا محايدة ومتعددة الاستخدامات كأغلب الأشياء في الطبيعة، لكن الإنسان يركب فيها سناناً فتصبح أداةَ قتل!

ثم تأمل هذا البيت الأخير،

كلّ ما لم يكُنْ من الصّعبِ في الأنـ *** ـفُسِ سَهْلٌ فيها إذا هوَ كانَا.

ومعناه أن كل شيء مَهما كان صعباً على النفس، عندما يقع يكون سهلا عليها.

وأتجاوز إلى قطعته التي قالها بمصر في وصف الحمى..

وأقف بك عند هذه الأبيات، ففيها تظهر فلسفة الرجل واعتقاداته وما يعتمل في نفسه من ضيق بالزمن وحساده ومصائبه، وتجلده وتحمله كلَّ ذلك بنفس الصابر الجلْد:

فإنْ أمرَضْ فما مرِضَ اصْطِباري *** وَإنْ أُحْمَمْ فَمَا حُمَّ اعتزَامي

وَإنْ أسْلَمْ فَمَا أبْقَى وَلَكِنْ *** سَلِمْتُ مِنَ الحِمامِ إلى الحِمامِ

ثم اقرأ هذين البيتين اللذين فتحا بابا من الفلسفة سيتعمق أكثر مع المعري، كما يرى طه حسين،

تَمَتّعْ مِنْ سُهَادٍ أوْ رُقَادٍ *** وَلا تَأمُلْ كرًى تحتَ الرِّجَامِ

فإنّ لِثَالِثِ الحَالَينِ مَعْنًى *** سِوَى مَعنَى انتِباهِكَ وَالمَنَامِ..

من عبقرية أبي الطيب أنه تناول أشياء في علم النفس وحتى في ما يسمى اليوم التنمية البشرية والبرمجة اللغوية العصبية، فمن قرأ ديل كارنيكي أو استمع لوين داير مثلاً يجد تناصا واضحا مع أبيات لأبي الطيب، فمثلا قوله:

والأسى قبل فرقة الروح عجز *** والأسى لا يكون بعد الفراق.

يتذكر حتما مقولة وين داير إن القلق قبل وقوع المحظور من أسباب التعاسة كما أنه لن يفيد بعد وقوعه أيضا..

وعندما تمر على وصية توماس كارلايل لتلامذته بالعيش في إطار اليوم الواحد

“day-tight compartment”والضرب بينه وبين الماضي والمستقبل بجدران سميكة لا يسعك إلا أن تتذكر قول أبي الطيب:

تصفو الحياة لجاهل أو غافل *** عمّا مضى فيها وما يُتوقع..

ومن الغريب أن في قصيدته الهجائية المشهورة أيضا هذين البيتين اللذين تناولا جانبا مهما من النفس البشرية بشهادة علم النفس الحديث، ألا وهما قوله:

إذا ساءَ فِعْلُ المرْءِ ساءَتْ ظُنُونُهُ *** وَصَدّقَ مَا يَعتَادُهُ من تَوَهُّمِ

وَعَادَى مُحِبّيهِ بقَوْلِ عُداتِهِ *** وَأَصْبَحَ في لَيلٍ منَ الشّكّ مُظلِمِ..

وهذا في مقدمة قصيدة غرضُها الهجاء!

فتأمل!

ونصل إلى غرض الرثاء وهو من أخصب الأغراض في ما يخص الفلسفة والتأمل في الحياة ومحاولة فك غوامضها وتحليل أحداثها، ولعل من أحسن مراثيه، البائية التي قالها يرثي أخت سيف الدولة، وهو حينئذ بالعراق،

وكذلك بائيته في رثاء يماك خادم سيف الدولة ويظهر أنه من أصل تركي، وفي أولها يقول أبو الطيب:

وَقَـدْ فـارَقَ النّـاسَ الأحِبّـةُ قَبْلَنَـا وَأعْـيَى دَوَاءُ المَـوْتِ كُلَّ طَبيـبِ
سُـبِقْنَا إلى الدّنْيَـا فَلَـوْ عاشَ أهْلُهـا مُنِعْنَـا بهَـا مِـنْ جَيْئَـةٍ وَذُهُـوبِ
تَمَلّكَهَـا الآتي تَمَلُّـكَ سَـالِبٍ وَفارَقَهَـا المَـاضِي فِـراقَ سَـليبِ
وَلا فَضْلَ فيهـا للشّـجاعَةِ وَالنّـدَى وَصَبْرِ الفَـتى لَـوْلا لِقـاءُ شَـعُوبِ

وشَعوب يقصد الموت، وقد جعلها علة كل شيء، وأذكر أن المازني في كتابه "حصاد الهشيم" أفاض في هذا البيت ومعانيه، حيث أن الموت هو علة كل شيء، وإذا افترضنا حياةً بلا موت لكانت الصفات التي نعدها فضيلة بلا معنى، فمن دون الموت لا معنى للشجاعة، ولا للكرم والسخاء، لأن الإنسان لا يحتاج شيئا فلا مرض ولا جوع ولا عطش! وقس على هذا كل شيء في هذه الدنيا!

وَأوْفَى حَيَاةِ الغَابِرِينَ لِصاحِبٍ *** حَياةُ امرِئٍ خَانَتْهُ بَعدَ مَشيبِ

يقول إن أكثر حياةٍ وفاءً هي حياة شخص خانته بعد أن شاب، أي بمعنىً آخر خانته وهو في أشد الحاجة لها في وقت ضعفه وعوزه!

ثم يخاطب سيف الدولة:

تَسَلَّ بفِكْرٍ في أبَيْكَ فإنّمَا *** بكَيْتَ فكانَ الضّحكُ بعدَ قَريبِ

أي تذكر موت أبيك وكيف أثر فيك ثم سلوته فمن باب أحرى هذا العامل،

إذا اسـتَقبَلَتْ نَفـسُ الكـريمِ مُصـابَها بِخُبْثٍ ثَنَـتْ فاسْـتَدْبَرَتْهُ بطيـبِ
وَللواجِـدِ المَكْـرُوبِ مِـن زَفَراتِـهِ سُكُونُ عَـزاءٍ أوْ سُـكونُ لُغُـوبِ
وَكَـمْ لَـكَ جَـدّاً لـمْ تَـرَ العَـينُ وَجهَـهُ فَلَـمْ تَجْـرِ في آثَـارِهِ بغُـرُوبِ

ثم إن الكريم إذا استقبل المصاب بحزن وشدة فإنه يخفُّ مع الزمن حتى يستدبره بطيب، والحزين المكروب لا بد أن يسكن يوما ما، إما بالتعب وإما بالسلوّ والعزاء، وهذا الأخير هو ما يليق بالأمير، فكم من جَد لك لم تره وبالتالي لم تجزع عليه رغم أنه جدك وتحبه!

وأتوقف قليلا عند رثائيته لأخت سيف الدولة الصغرى التي يقول فيها:

وَإذا الشّـيخُ قَـالَ أُفٍّ فَمَـا مَـ ـلّ حَيَـاةً وَإنّمَـا الضّـعْفَ مَـلاّ
آلَـةُ العَـيشِ صِـحّةٌ وَشَـبَابٌ فـإذا وَلّيَـا عَـنِ المَـرْءِ وَلّى
أبَـداً تَسْـتَرِدّ مَـا تَهَـبُ الدّنْـ ـيَا فَيـا لَيـتَ جُودَهـا كانَ بُخْـلا
فكفَتْ كـوْنَ فُرْحـةٍ تـورِثُ الغـمّ وَخِـلٍّ يُغـادِرُ الوَجْـدَ خِـلاّ
وَهيَ مَعشُـوقةٌ على الغَـدْرِ لا تَحْـ ـفَظُ عَهْـداً وَلا تُـتَمّمُ وَصْـلا
كُلُّ دَمْـعٍ يَسـيلُ مِنهَـا عَلَيْهـا وَبِفَـكّ اليَـدَينِ عَنْهـا تُخَـلّى
شِـيَمُ الغَانِيَـاتِ فِيهـا فَمَـا أدْ ري لذا أنّـثَ اسْـمَها النّـاسُ أم لا؟

فهذه الأبيات تظهر فيها فلسفة الرجل جلية واضحة، ولا تحتاج كثير شرح، وهي أهم ما في هذه المرثية.

ونصل بك إلى درة أبي الطيب في الرثاء، وإحدى أحسن المراثي في الشعر العربي، وهي في رثاء خولةَ أختِ سيف الدولة التي مطلعها:

يـا أُخْـتَ خَـيرِ أخٍ يـا بِنْـتَ خَـيرِ أبِ كِنَايَـةً بِهِمَـا عَـنْ أشرَفِ النّسَـبِ
أُجِـلُّ قَـدْرَكِ أنْ تُسْـمَيْ مُؤبَّنَـةً وَمَـنْ يَصِـفْكِ فَقـد سَـمّاكِ للعَـرَبِ
لا يَمْلِـكُ الطّـرِبُ المَحـزُونُ مَنطِقَـه وَدَمْعَـهُ وَهُمَـا في قَبضَـةِ الطّـرَبِ
غدَرْتَ يا مَوْتُ كم أفنَيتَ من عـدَدٍ بمَنْ أصَبْتَ وكـم أسكَتَّ مـن لجَـبِ

إلى أن يقول مخاطباً سيفَ الدولة، ومشيراً إلى رأيه في طبيعة الدنيا:

فَـلا تَنَلْـكَ اللّيـالي، إنّ أيْـدِيَهَا إذا ضَرَبنَ كَسَـرْنَ النَّبْـعَ بـالغَرَبِ
وَلا يُعِـنّ عَـدُوّاً أنْـتَ قـاهِرُهُ فـإنّهُنّ يَصِـدْنَ الصّـقرَ بـالخَرَبِ

فمن كان الدهر عليه لم تنفعه قوة ولا بأس، ومن كان معه لم يضره ضعف ولا خور.

وَإنْ سَرَرْنَ بمَحْبُوبٍ فجَعْنَ بهِ *** وَقَد أتَيْنَكَ في الحَالَينِ بالعَجَبِ

فما أعطت جميلا ولا متَّعت بحبيبٍ إلا رجعت ففجعت به! وعلى قدر حبه تكون فجيعتُه.

وَرُبّمَا احتَسَبَ الإنْسانُ غايَتَهَا ... وَفاجَأتْهُ بأمْرٍ غَيرِ مُحْتَسَبِ
وَمَا قَضَى أحَدٌ مِنْهَا لُبَانَتَهُ ... وَلا انْتَهَى أرَبٌ إلاّ إلى أرَبِ
تَخالَفَ النّاسُ حتى لا اتّفاقَ لَهُمْ ... إلاّ على شَجَبٍ وَالخُلفُ في الشجبِ
فقِيلَ تَخلُصُ نَفْسُ المَرْءِ سَالمَةً ... وَقيلَ تَشرَكُ جسْمَ المَرْءِ في العَطَبِ
وَمَنْ تَفَكّرَ في الدّنْيَا وَمُهْجَتِهِ ... أقامَهُ الفِكْرُ بَينَ العَجزِ وَالتّعَبِ

وتأمل هذه الأبيات، فالناسُ مختلفون في كل شيء إلا في الموت أنه واقع، ومع ذلك اختلفوا في كنهه وفيما بعده، فمنهم من يرى أن النفس والروح تفنى مع الجسد، وهذا هو رأي أغلب العلماء في عصرنا هذا في الغرب، ومن الناس من يرى أن الجسد يفنى وتبقى النفس للحياة الآخرة وهذا رأي أغلب الأديان بمن فيهم نحن، ثم إن أبا الطيب يختم بهذه الخاتمة المفتوحة إن صح التعبير، فالإنسانُ المتأمل يدركه العجز عن فهم الحياة والموت ولكنه لا يفتأ يتأمل أيضا!

...

ثم أتجاوز إلى مرثية أخرى رائعة وهي عينيته في فاتك الملقب بالمجنون، وقد حدثني بعضهم أن أحد متذوقي الشعر ما سمعها ولا قرأها إلا تغرغرت عيناه

لحسن معانيها وصدق عاطفتها، وكما أشرت سابقاً فوده لفاتك كان وداً صحيحاً صادقا، يقول:

الحُزْنُ يُقْلِقُ وَالتَجَمُّلُ يَرْدَعُ ***وَالدّمْعُ بَيْنَهُمَا عَصِيٌّ طَيِّعُ

يَتَنَازَعانِ دُمُوعَ عَينِ مُسَهَّدٍ ***هَذا يَجيءُ بهَا وَهَذَا يَرْجِعُ

فانظر هذا الدمع الذي يُجريه الحزن على هذا الفقيد المجيد، ثم يدركه التجمُّل والتصبر فيرقى، فهو جارٍ راقٍ تتناوبه هاتان الحالتان جيئةً وذهابا!

ثم يقول بعد أبيات:

تَصْفُو الحَياةُ لجَاهِلٍ أوْ غافِلٍ*** عَمّا مَضَى فيها وَمَا يُتَوَقّعُ

وَلمَنْ يُغالِطُ في الحَقائِقِ نفسَهُ*** وَيَسومُها طَلَبَ المُحالِ فتطمَعُ

وهذه كما قلنا في سياق آخر، مما يقول به أهل علم النفس المعاصرون، ومن قرأ لديل كارنيجي مثلا يجده يقول إن سر السعادة هو غلق الباب دون الماضي وتركه، ودون المستقبل وما قد يأتي به، والتركيز فقط على الوقت الحاضر. وهذه الفكرة متكررة كثيرا في كتب التنمية البشرية الحديثة.

ثم اقرأ معي من آخر ما قال من الرثاء هذه البائية لعمة عضد الدولة البويهي، وليس فيها ما يستحق أن نقف عنده غير هذه الأبيات المتفلسفة المتأملة في الحياة، ولعل أبا الطيب أرادها أن تكون هي لب القصيدة وزبدتها أما الرثاء

والمدح فلم يهتم بهما ولعلنا يمكن أن نفهم ذلك فيما قدمنا من رأيه في البويهيين وفي حكام العجم عموما الذين لم يكن يُكِنّ لهم كبيرَ ود:

لا بُــدّ للإنْســانِ مــن ضَــجعَةٍ ... لا تَقْلِــبُ المُضْــجَعَ عــن جَنبِــهِ
يَنســى بهــا مــا كانَ مِــن عُجْبِــهِ ... وَمَــا أذاقَ المَــوْتُ مــن كَرْبِــهِ
نحــنُ بَنُــو المَــوْتَى فَمَــا بالُنَــا ... نَعَــافُ مَــا لا بُــدّ مــن شُرْبِــهِ
تَبْخَــلُ أيْــدينَا بِأرْوَاحِنَــا ... على زَمَــانٍ هيَ مــن كَسْــبِهِ
فَهَــذِهِ الأرْوَاحُ مــنْ جَــوّهِ ... وَهَــذِهِ الأجْســامُ مِــنْ تُرْبِــهِ
لَــوْ فكّــرَ العاشِــقُ في مُنْــتَهَى ... حُســنِ الذي يَســبيهِ لــم يَسْــبِهِ
لــم يُــرَ قَــرْنُ الشّــمسِ في شَرْقِــهِ ... فشَــكّتِ الأنْفُــسُ في غَرْبِــهِ

والمعنى أنه ما رُئِيَّ قرنُ الشمس إلا تأكد غروبُه ولم يشك أحد في ذلك، وهذا قريب من قولهم (من ولد مات).

يَمُوتُ رَاعي الضّأنِ في جَهْلِهِ ***مِيتَةَ جَالِينُوسَ في طِبّهِ

وهذا عندي من شواهد اطلاع وثقافة أبي الطيب. وهو كثير في شعره، وقد تناولت بعضه هنا في الحديث عن ثقافته وتنوع مطالعاته.

وَرُبّمَــــا زَادَ على عُمْــــرِهِ ... وَزَادَ في الأمــــنِ على سِرْبِــــهِ
وَغَايَــــةُ المُفْــــرِطِ في سِــــلْمِهِ ... كَغَايَــــةِ المُفْــــرِطِ في حَرْبِــــهِ

فَــلا قَـــضَى حاجَتَــهُ طالِــبٌ   فُـــؤادُهُ يَخفِـــقُ مِـــنْ رُعْبِـــهِ

ومن أهم القصائد التي أسميها المفتاحية لشخصية المتنبي، هي رثاؤه لجدته، وهي قصيدة باح فيها بالكثير من مكنونات نفسه، وفلسفته في الحياة، وآماله وآلامه، وأهدافه وخيباته، لذلك سنقف عند أبيات منها مهمة:

ألا لا أُري الأحداثَ مَدحاً ولا ذَمّا***   فَما بَطشُها جَهلاً ولا كفُّها حِلمَا

هنا يُبدي أبو الطيب رأيه في الحياة وأحداثها، فلا هي تحدث لانتقام مثلا ولا هي تكف لكرامة شخص عليها أو حلمها عنه، فهي كقوة عمياء تصيب من تصيب وتخطئ من تخطئ على حد قول زهير الشهير متحدثاً عن الموت:

رأَيْتُ المَنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْ, *** تُمِـتْهُ وَمَنْ تُخْطِئ يُعَمّـرْ فَيَهْـرَمِ..

فكلا الرجلين يرى الحياة والموت قوة عمياء لا تصيب عن سابق إصرار، ولا تخطئ عنه.

عرَفْتُ اللّيالي قَبلَ ما صَنَعَتْ بنا **   فلَمَا دَهَتْني لم تَزِدْني بها عِلْمَا

وهذا تأكيدٌ لمعرفته بالدهر وخطوبه لطول ما شاهد ما تبتلي به الدنيا أهلَها فلما جاء دورُه لم يجزع ولم تزده علما لأنه علم صروفها قبل هذا.

طَلَبْتُ لها حَظّاً فَفاتَتْ وفاتَني ... وقد رَضِيَتْ بي لو رَضيتُ بها قِسْمَا
فأصْبَحتُ أسْتَسقي الغَمامَ لقَبرِها ... وقد كنْتُ أستَسقي الوَغى والقنا الصُّمّا
وكنتُ قُبَيلَ الموْتِ أستَعظِمُ النّوَى ... فقد صارَتِ الصّغَرى التي كانتِ العظمى
هَبيني أخذتُ الثأرَ فيكِ منَ العِدَى ... فكيفَ بأخذِ الثّأرِ فيكِ من الحُمّى
وما انسَدّتِ الدّنْيا عليّ لضِيقِهَا ... ولكنَّ طَرْفاً لا أراكِ بهِ أعمَى

في هذه الأبيات الرائعة، يقول أبو الطيب إنه ذهب مذاهبَ شتى في البلاد بحثاً عن الحظ، ولك أيها القارئ الكريم أن تفسر هذا الحظ بما شئت، فقد يكون قصد بحثه عن الولاية، أو المجد، أو شرف النسب العلوي أو غيره، لكنه رغم البحث والمغامرة فاته هذا الحظ المنشود وفاتته جدته أيضاً، وقد رضيت به قسما وحظا ولم تكن تريد إلا أن يبقى معها لكنه لم يرض ذلك بل إن شعلة البحث عن المجد والرياسة كانت أقوى.

ولَوْ لَمْ تَكُوني بِنْتَ أكْرَمِ والِدٍ ... لَكانَ أباكِ الضّخْمَ كونُكِ لي أُمّا
لَئِنْ لَذّ يَوْمُ الشّامِتِينَ بيَوْمِهَا ... لَقَدْ وَلَدَتْ مني لأنْفِهِمِ رَغْمَا
تَغَرّبَ لا مُسْتَعْظِماً غَيرَ نَفْسِهِ ... ولا قابِلاً إلاّ لخالِقِهِ حُكْمَا
ولا سالِكاً إلاّ فُؤادَ عَجاجَةٍ ... ولا واجِداً إلاّ لمَكْرُمَةٍ طَعْمَا
يَقُولونَ لي ما أنتَ في كلّ بَلدَةٍ ... وما تَبتَغي؟ ما أبتَغي جَلّ أن يُسْمى

ولكِنّـــــني مُسْتَنْـــــصِرٌ بذُبَابِـــــهِ ومُرْتكِـــبٌ في كلّ حـــالٍ بـــه الغَشـــمَا
وجاعِلُـــهُ يَـــوْمَ اللّقـــاءِ تَحِيّـــتي وإلاّ فلَسْـــتُ الســـيّدَ البَطَـــلَ القَرْمَـــا
إذا فَـلّ عَـزْمي عـن مـدًى خـوْفُ بُعـده فأبْعَـدُ شيءٍ ممكـنٌ لـم يَجِـدْ عزْمَـا
وإنّي لَمِـــنْ قَـــوْمٍ كـــأنّ نُفُوسَـــهُمْ بهـا أنَـفٌ أن تسـكنَ اللّحـمَ والعَظمَـا
كـذا أنَـا يـا دُنْيـا إذا شِـئْتِ فـاذْهَبي ويـا نَفـسِ زيـدي في كرائِهِهـا قُـدْمَا
فـلا عَـبَرَتْ بي سـاعَةٌ لا تُعِـزّني ولا صَـحِبَتْني مُهجَـةٌ تقبـلُ الظُّلْمَـا

في هذا الأبيات يواصل أبو الطيب ثناءه على جدته التي هي بنت أكرم والد، وحتى لو لم تكن كذلك فيكفيها أن حفيدها المتنبي! وهو بذلك يقلب الأنسابَ العربية جميعا رأساً على عقب، فقد صار الفرع مفخراً للأصل!
وهذا مثلَ قول الآخر:

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم*** كلا لعمري، ولكن منه شيبانُ..

ثم يواصل بَوحَه بهمومه وأحلامه وتطلعاته وما يلاقي من دهره ومعاصريه من كيد وحسد، لكنه مع ذلك يهددهم ويتوعدهم أقوى الوعيد وأقساه وأمرَّه، وأنه معتمد على ذباب سيفه فهو تحيته التي يلقاهم بها.
وسنقف بك عزيزي القارئ عند بعض الأبيات من قصائد متفرقة تُظهر معاناة الرجل مع ما يرميه به الدهر وأهلُه من نكبات وما يعتمل في نفسه من أحلام وطموح.

اقرأ معي مثلا قوله من قصيدة:

يُحـــاذِرُني حَـــتْفي كـــأنّيَ حَتْفُـــهُ وتَنْكُـــزُني الأفـــعَى فيَقتُلُهـــا سُـــمّي
طِـــوالُ الرُّدَيْنِيّـــاتِ يَقْصِـــفُها دَمي وبِـــيضُ السُّـــرَيجيّاتِ يَقطَعُهـــا لحـــمي
بـرَتْني الـــسُّرَى بـرْيَ المُـدى فـرَدَدْنَني أخَـفَّ على المركـوبِ مـن نَفَـسي جِـرْمي
كـأنّي دحـوْتُ الأرضَ مـن خـبرتي بهـا كـأنّي بَـنى الإسـكَندرُ السـدّ مـن عـزْمي

***

ثم انظر هذه الأبيات من قصيدته المشهورة هذه:

أُطاعِنُ خَيْلاً مِنْ فَوارِسِها الدّهْرُ *** وَحيداً، وما قَوْلي كذا ومَعي الصّبرُ

ويكفيك الشطر الأول حين تتمعن فيه، لتعذر هذا الرجل في حقده على أهل عصره، فهو يُطاعن خيلا الدهرُ كلُّه بعضُ فوارسها!

ثم يواصل وصف أخلاقه وشجاعته واقتحامه:

وأشْـــجَعُ مـــني كلَّ يـــوْمٍ سَـــلامَتي ومـــا ثَبَتَـــتْ إلاّ وفي نَفْسِـــها أمْـــرُ
تَمَرّسْـــتُ بالآفـــاتِ حـــتى تركْتُهَـــا تَقـــولُ أمـــاتَ المَـــوْتُ أم ذُعِـــرَ الذُّعْـــرُ؟
وأقْـــدَمْتُ إقْـــدامَ الأتيّ كـــأنّ لي ســـوَى مُهجَـــتي أو كان لي عنـــدها وِتْـــرُ
ذَرِ النّفْـسَ تأخـذْ وُسـعَها قبـلَ بَينِهـا فمُفْـــتَرِقٌ جـــارانِ دارُهُمـــا العُمْـــرُ

فالعمر قصير والحياة زائلة فخذ بحظك منها ما دمت قادرا ولا تبال بشيء.

ولا تَحْسَبَنّ المَجْدَ زِقّاً وقَيْنَةً *** فما المَجدُ إلاّ السّيفُ والفتكةُ البِكرُ

وتَضريبُ أعناقِ المُلوكِ وأن تُرَى *** لكَ الهَبَواتُ السّودُ والعسكرُ المَجْرُ

وأذكر أني قرأت مرة لبعضهم أنه لو كان غير المتنبي قائل هذا البيت لقال وتضريب أعناق الرجال.. ولكن المتنبي لا يرى كفئا له إلا الملوك، والغريب عندي أن يُنشد هذا أمام أمير أو ملك! فانظر شجاعة الرجل وضيقه بأهل دهره الذين بخسوه حقه و تآمروا عليه، ويتمادى في ذلك في الأبيات التي بعد هذا فيقول:

إذا الفضْلُ لم يَرْفَعكَ عن شكرِ ناقصٍ ... على هِبَةٍ فالفَضْلُ فيمَن له الشّكْرُ

ومَنْ يُنفِقِ السّاعاتِ في جمعِ مالِهِ ... مَخافَةَ فَقْرٍ فالذي فَعَلَ الفَقْرُ

وكم من جِبالٍ جُبتُ تَشهَدُ أنّني الـ ... ـجِبالُ وبَحْرٍ شاهِدٍ أنّني البَحْرُ

وجَنّبَني قُرْبَ السّلاطِينِ مَقْتُهَا ... وما يَقْتضِيني مِن جَماجِمِها النَّسرُ

وإنّي رأيتُ الضُّرّ أحسَنَ مَنظراً ... وأهْوَنَ مِنْ مَرْأى صَغيرٍ بهِ كِبْرُ

فهو يمقت قرب هؤلاء الملوك، وكبرهم بغير حق فهو يرى نفسه مثلهم بل أرفع قدراً، مثل قوله:

وفؤادي من الملك وإن كا *** ن لساني يُرى من الشعراء!

وسنقف قليلا عند أبيات من لاميته المنسرحية الشهيرة، ففيها يتناول قضية النسب فيقول:

أنا ابنُ مَن بعضُهُ يَفُـوقُ أبَـا الــ ـباحِثِ والنَّجلُ بعـضُ مـن نَجَلَـهْ
وإنّمـــا يَـــذْكُرُ الجُـــدودَ لَهُـــمْ مَـــنْ نَفَـــرُوهُ وأنْفَـــدوا حِيَلَـــهْ

أي أن من يفاخر بالجدود هو فقط من عجز ونفدت حيلُه فلم يبق له إلا الفخر بالغابرين واستدعاءُ الماضي وأهلِه، لأن حاضره لا يسعفُه! وأرى أن هذين البيتين يصلحان لحالنا المعاصر فعالمنا العربي العاجز والمتأخر علميا وتقنيا غارق في الماضي وأمجاده الغابرة، لأن حاضره بائس لا مجد فيه، فترى أغلبنا يستدعي عصور النهضة الإسلامية وما كان فيها من تقدم أيامَ عصورها الذهبية، وما ذلك إلا لأن الحاضر لا مجد فيه.

ونرجع إلى أبي الطيب مع هذه الأبيات الرائعة:

فَخْـراً لعَضْـبٍ أرُوحُ مُشْـتَمِلَهْ وسَـــــمْهَرِيٍّ أرُوحُ مُعْتَقِلَـــــهْ
وليَفْخَـرِ الفَخْـرُ إذْ غـدَوْتُ بـهِ مُرْتَـــــدِياً خَـــــيْرَهُ ومُنْتَعِلَـــــهْ

أنـــا الذي بَـــيّنَ الإلهُ بِـــهِ الـــ ـــأقْدارَ والمَـــرْءُ حَيْثُمـــا جَعَلَـــهْ

فهو هنا يعتبر نفسه مقياسا يُبين الله به أقدارَ الناس، ومنازلَهم، فمن كان كريما عظيمَ القدر بان ذلك في تعامله مع أبي الطيب وبان أيضا في شعره. فهو:

جَوْهَرَةٌ تَفْرَحُ الشِّرافُ بهَا *** وغُصّةٌ لا تُسِيغُها السّفِلَهْ

إنّ الكِذابَ الذي أُكَادُ بِهِ *** أهْوَنُ عِنْدي مِنَ الذي نَقَلَهْ

فالكذب والنميمة أحقر عند المتنبي ممن يمشي بهما!

فَـــــلا مُبَـــــالٍ ولا مُـــــداجٍ ولا وانٍ ولا عاجِـــــــزٌ ولا تُكَلَـــــــهْ

ودارِعٍ سِـــــفْتُهُ فَخَـــــرَّ لَـــــقًى في المُلْـــــتَقَى والعَجـــــاجِ والعَجَلَـــــهْ

وســـــامِعٍ رُعْتُـــــهُ بقافِيَـــــةٍ يَحـــــارُ فيهـــــا المُـــــنَقِّحُ القُـــــوَلَهْ

ورُبّمـــــا أُشْـــــهِدُ الطّعـــــامَ مَـــــعي مَـــــن لا يُســـــاوي الخـــــبزَ الذي أكَلَـــــهْ

ويُظْهِـــــرُ الجَهْـــــلَ بي وأعْرِفُـــــهُ والدُّرُّ دُرٌّ بـــــرَغْمِ مَـــــنْ جَهِلَـــــهْ

وقد والله صدق، فهل ضر شعر المتنبي جهلُ بعض أهل دهره به؟ وها نحن نتدارسُه بعد أكثر من ألف سنة!

ثم اقرأ معي هذه الأبيات من قصيدة له:

يَهُـونُ على مِـثْلي إذا رامَ حاجَـةً وُقـوعُ العَـوالي دونَهـا والقَواضِـبِ
كَثـيرُ حَيَـاةِ المَـرْءِ مِثْـلُ قَليلِهَـا يَـزولُ وبـاقي عَيْشِـهِ مِثْـلُ ذاهِـبِ

وتأملْ هذه الفلسفةَ والنظرة الثاقبة لتفاهة الحياة ونسبيتها، وتَساوي جميع أحوالها رغم التفاوت السطحي الظاهر،

ثم ما أحسن قوله:

حَمَلْتُ إلَيْهِ مِنْ لِسَاني حَديقَةً *** سقاها الحجا سقيَ الرّياضِ السّحائِبِ

فهذه الصورة بديعة، وطبعا هو تصرَّفَ في ترتيب الشطر الأخير فقدّم الرياض وحقها التأخيرُ لأن المعنى سقي السحائب للرياض. ...

وأخيرا سنقف مع إحدى أروع قصائده وأكثرها تعبيراً عن خلجات نفسه ويمكن أن نستشف الكثيرَ عن حياته من خلال تأملها وتذوقها، يقول رحمه الله:

لَـيسَ التّعَلّـلُ بالآمَـالِ مِـن أرَبي وَلا القَناعَةُ بـالإقْلالِ مـن شِـيَمي
وَلا أظُـنّ بَنـاتِ الدّهْـرِ تَتْرُكُـني حـتى تَسُـدّ علَيهـا طُرْقَهـا هِمَـمي
لُمِ اللّيـالي الـتي أخْنَـتْ على جِـدَتي بِرِقّـةِ الحـالِ وَاعـذِرْني وَلا تَلُـمِ

وفي البيت الأخير يوضح لنا عذره في كل ما أتى في حياته، فالخطوب والدواهي هي التي اضطرته لكثير مما قام به...

ثم يعود إلى ديدنه من التجمل والشدة وعدم الاستسلام لخطوب الدهر فيقول:

سيَصحَبُ النّصلُ مني مثلَ مَضرِبِه ... وَيَنجَلي خَبري عن صِمّةِ الصَّمَمِ
لقد تَصَبّرْتُ حتى لاتَ مُصْطَبَرٍ ... فالآنَ أقْحَمُ حتى لاتَ مُقْتَحَمِ
لأتْرُكَنّ وُجوهَ الخَيْلِ ساهِمَةً ... وَالحَرْبُ أقوَمُ مِن ساقٍ على قَدَمِ
رِدِي حِياضَ الرّدى يا نفسِ وَاتّركي ... حياضَ خَوْفِ الرّدى للشّاء والنَّعَمِ
إنْ لم أذَرْكِ على الأرماحِ سائِلَةً ... فلا دُعيتُ ابنَ أُمّ المَجدِ والكَرَمِ
أيَمْلِكُ المُلْكَ وَالأسيافُ ظامئَةٌ ... وَالطّيرُ جائِعَةٌ لَحْمٌ على وَضَمِ
مَنْ لَوْ رَآنيَ ماءً ماتَ مِنْ ظَمَإٍ ... وَلَوْ عَرَضْتُ لهُ في النّوْم لم يَنمِ

فهؤلاء الملوك يخافونه ويخشونه وهم أذلاء أمامه، حتى إنه لو عرض لهم في النوم ما ناموا، ومع ذلك هم ملوك وهو مجرد شاعر! وهذا المعنى متكرر كما رأينا معك، فهو يرى الدهر يُعطي من لا يستحق، فهو غير عادل ولا منصف، لذلك فـ:

ميعادُ كلّ رَقيقِ الشّفرَتينِ غَداً *** ومَن عصَى من ملوكِ العُرْبِ والعجمِ
فإنْ أجابُوا فَما قَصدي بهَا لَهُمُ *** وَإنْ تَوَلّوْا فَمَا أرْضَى لَها بهِمِ

....

ومن الجوانب التي أغفلها الكثيرون ممن تناولوا أدب الرجل، قضية السخرية اللاذعة في أشعاره، وهو موضوع يستحق البحث والتأمل، ولم أقف على بحث فيه، فقد طغى ذكر الرجل في الفخر والمدح وذم الدهر وأهله على جوانب أخرى تستحق البحث والدراسة، وقد حفظ لنا ديوان أبي الطيب أبياتا غرضُها الوحيد السخرية. فضلا عن السخرية والتهكم المتناثر في قصائده الطوال، والأبيات تصف شخصين أخرقين رآهما الشاعر يتباهيان بقتل جرذ كبير، فتصور هو ما حدث ثم صوره لنا قائلا:

لقَدْ أصْبَحَ الجُرَذُ المُسْتَغِيرُ *** أسيرَ المنَايا صَريعَ العَطَبْ

فهذا الجرذ أغار كما يغير الأبطال والكماة الأشداء! لكن هذين البطلين كانا له بالمرصاد،

رَمَاهُ الكِنَانيُّ وَالعَامِرِيُّ *** وَتَلاّهُ للوَجْهِ فِعْلَ العَرَبْ

فقد رمياه وصارعاه أيضا حتى ألقياه أرضا كما تفعل العرب الأقحاح في الحرب الضروس/

كِلا الرّجُلَينِ اتّلَى قَتْلَهُ *** فَأيُّكُمَا غَلّ حُرَّ السَّلَبْ

كلاهما قتله، فأيهما يا ترى أخذ الغنائم من هذا الجرذ العظيم؟ فقد كان من عادة المتقاتلين أن يسلبوا المغلوب ويأخذوا ما بحوزته من غنائم!

وَأيُّكُمَا كانَ مِنْ خَلْفِهِ *** فإنّ بهِ عَضَّةً في الذّنَبْ

...فالأبيات كما ترى في قمة السخرية والتهكم.

وفي لاميته البديعة التي مطلعها:

ذي المَعَالي فلْيَعْلُوَنْ مَن تَعَالى *** هَكَذا هَكَذا وَإلاّ فَلا لا.

نراه يسخر كعادته من ملك الروم، ويشبه القلعة التي بنى سيفُ الدولة من غيظها له بشيء نابت في وجهه كلما رام اقتلاعه زاد..

أقْلَقَتْهُ بَنِيّةٌ بَينَ أُذْنَيْـ ***ـهِ وَبَانٍ بَغَى السّماءَ فَنَالا

كُلّما رَامَ حَطّها اتّسَعَ البَنْـ***ـيُ فَغَطّى جَبينَهُ وَالقَذالا.

ثم اقرأ معي هذه الأبيات البديعة:

قَصَدوا هَدْمَ سُورِهَا فَبَنَوْهُ ... وَأتَوْا كَيْ يُقَصّرُوهُ فَطَالا

رُبّ أمْرٍ أتَاكَ لا تَحْمَدُ الفَعّـ ... ـالَ فيهِ وَتَحْمَدُ الأفْعَالا

أخذوا الطُّرْقَ يَقطَعُونَ بها الرّسْـ ... ـلَ فَكانَ انقِطاعُهَا إرْسَالا

مَا مَضَوْا لم يُقاتِلُوكَ وَلَكِـ ... ـنّ القِتَالَ الذي كَفاكَ القِتَالا

وَالثّباتُ الذي أجادوا قَديماً ... عَلّمَ الثّابِتِينَ ذا الإجْفَالا

طبعا الأبيات غير متوالية، وهي جميلة بديعة كلها.

ونجد في قصيدته اللامية المشهورة في وصف إحدى معارك سيف الدولة

نجد هذه السخرية من ملك الروم الذي هرب وترك ابنه للموت! يخاطبه أبو الطيب قائلا:

لَعَلّــكَ يَوْمــاً يــا دُمُسْــتُقُ عَائِــدٌ فَكَــمْ هــارِبٍ مِمّــا إلَيْــهِ يَــؤولُ
نَجَـوْتَ بإحْـدَى مُهْجَتَيْـكَ جرِيحـةً وَخَلّفتَ إحـدى مُهجَتَيـكَ تَسـيلُ
أتُسْــلِمُ للخَطّيّــةِ ابنَــكَ هَارِبــاً وَيَسْـكُنَ في الدّنْيـا إلَيـكَ خَليـلُ

يقول له ربما ستعود يوما لما هربت منه الآن، وإن كنت نجوت بنفسك بالهرب، فقد خلفت نفسك الأخرى أي ابنك للموت! فكيف بعد هذا يستأنس بك خليل أو يأمنك صديق؟

وفي قافيته نراه أيضا يعلق على رسول ملك الروم واستسلامه واكتفائه بالمراسلات بدل السلمية:

ولَمْ يَثْنِكَ الأعْداءُ عَنْ مُهَجاتِهِمْ *** بِمِثْلِ خُضُوعٍ في كَلامٍ مُنَمَّقِ
وَكُنْتَ إذا كاتَبْتَهُ قَبْلَ هذِهِ *** كَتَبْتَ إليْهِ في قَذالِ الدّمُسْتُقِ

فأنت تكتب إليهم في قفا الدمستق أي بالجروح فيه من أثر الحرب، وهم يكتبون متوسلين مستسلمين!

وهذا مثل قوله:

دُرُوعٌ لمَلْكِ الرّومِ هذي الرّسائِلُ *** يَرُدّ بهَا عَنْ نَفْسِهِ وَيُشَاغِلُ

فهو يحتمي بالمراسلات فهي كالدروع له. وفي هذه القصيدة يسخر أبو الطيب من الشعراء كعادته قائلا:

أفي كلّ يـــوْمٍ تحـــتَ ضِـــبْني شُـــوَيْعِرٌ ضَـــعيفٌ يُقـــاويني قَصِـــيرٌ يُطـــاوِلُ

لِســـاني بـــنُطْقي صـــامِتٌ عنـــهُ عادِلٌ وَقَلـــبي بصَـــمتي ضـــاحِكٌ منـــهُ هـــازِلُ

وَأتْعَـــبُ مَـــنْ نـــاداكَ مَـــنْ لا تُجيبُـــهُ وَأغـــيَظُ مَـــنْ عاداكَ مَـــن لا تُشـــاكِلُ

وَمـــا التّيـــهُ طـــبّي فـــيهِمِ غَـــيرَ أنّـــني بَغـــيضٌ إليّ الجاهِـــلُ المُتَعَاقِـــلُ

في رحلة المتنبي اليائسة إلى مصر، بدأ بقصيدته اليائية التي مطلعها:

كفى بك داءً أن ترى الموتَ شافيا..

وفي هذه القصيدة كغيرها من القصائد الكافوريات، إشاراتٌ واضحة ويكفيك المطلع، ففيه بغيةُ الباحث عن حقيقة يأس المتنبي في تلك الفترة.

وقد أوضح الأوائل هذه المعاني في شروح الديوان، وكذلك تعليقات ابن جني، وهو مَن قيل إن المتنبي قال إنه أعلم بشعره منه، وفي إحدى الروايات أن المتنبي لما قال في بائيته لكافور التي مطلعها: أغالبُ فيك الشوقَ والشوقُ أغلبُ..

وما طربي لما رأيتك بدعةً *** لقد كنتُ أرجو أن أراك فأطربُ

قال له ابن جني: ما زدت على أن جعلته أبا زَنَّة! وهي كنية القرد، فتبسم أبو الطيب.

وفي هذا التبسم إقرار من أبي الطيب بما قال ابن جني.

ولا شك عندي في أن كرهَ المتنبي واحتقارَه للأعاجم الذين استولوا على الدولة العربية الإسلامية بل واحتقاره لهذا الأسود خاصة كان بادياً للعيان ويمكنك ملاحظة ذلك جلياً في قصائده له دون كبير عناء.

وقد أشار هو لذلك في قوله في هجائه بعد ذلك:

وَلَوْلا فُضُولُ النّاسِ جِئْتُكَ مادحاً *** بما كنتُ في سرّي بهِ لكَ هاجِيَا.

وفي نونيته له على وجه الخصوص الكثير من التهكم المبطن، وقد تناوله الأقدمون وفي ما قالوا الكفاية:

عَــدُوُّكَ مَــذْمُومٌ بِكُــلّ لِسَــانِ وَلَــوْ كانَ مِــنْ أعــدائِكَ القَمَــرَانِ

وَللّه سِرٌّ في عُــــــلاكَ وَإنّمَــــــا كَلامُ العِـدَى ضَرْبٌ مــنَ الهَــذَيَانِ

أتَلْــتَمِسُ الأعــداءُ بَعــدَ الذي رَأتْ قِيَــامَ دَليــلٍ أوْ وُضُــوحَ بَيَــانِ؟

ففي هذه الأبيات تلك القراءات المتعددة الأوجه، ولا نحتاج تبياناً أكثر..

ولا يفوتك أيها القارئ الكريم أن أبا الطيب لا يمكنه إلا أن يشير من بعيد

جدا عما يختلج في نفسه، فهو قبل كل شيء ضيف عند الرجل ولا يأمن غائلتَه وهو غريب الدار لا سندَ ولا مُعين له، ثم إنه لم يقنط تماما مما جاء به إلى مصر وهو الولاية، التي صرح بها أكثر من مرة، مثلا انظر قوله:

وَغَيرُ كَثِيرٍ أنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ *** فَيَرْجعَ مَلْكاً للعِرَاقَينِ وَالِيَا.

وكذلك قوله في البائية التي مرت بنا:

أبا المِسْكِ هل في الكأسِ فَضْلٌ أنالُه فإنّي أُغَنّي منذُ حينٍ وَتَشرَبُ
وَهَبْتَ على مِقدارِ كَفّيْ زَمَانِنَا وَنَفسِي على مِقدارِ كَفّيكَ تطلُبُ
إذا لم تَنُطْ بي ضَيْعَةً أوْ وِلايَةً فَجُودُكَ يَكسُوني وَشُغلُكَ يسلبُ

فأنت ترى التصريح تارة والتلميح تاراتٍ أخرى.. وفي بائيته الأخرى اسمع معي قوله وقد بدا اليأس يتسلل إلى قلبه:

أُقِلُّ سَلامي حُبَّ ما خَفّ عَنكُمُ *** وَأسكُتُ كَيمَا لا يَكونَ جَوَابُ
وَفي النّفسِ حاجاتٌ وَفيكَ فَطَانَةٌ *** سُكُوتي بَيَانٌ عِنْدَها وَخِطابُ..

وفي هذه القصيدة الرائعة الكثير مما يستحق أن أقف عنده، فتأملها ففيها يبوح الرجل بمكنونات نفسه تصريحا حينا وتلميحا أحيانا أخرى.

وهناك منحىً آخر مهمٌ وهو علاقته بالشعراء، ولكي نفهم علاقة أبي الطيب بالشعراء الآخرين، يجب أن نفهم أولاً أن وظيفة ومكانة الشعر في هذا العصر

قد اعتورها وأصابها ما أصاب هذا العصر جملةً من ضعف وانحطاط، فقد اختُزلت وظيفة الشاعر في إلهاء الخلفاء والأمراء ومدحهم دون كرامة ولا حياء وصار الشعر للتكسب المحض.

ومن المهم أيضاً أن نفهم أن الشعر كان سلاحاً حتى ضد أبي الطيب نفسِه!

فقد جنّد أعداؤه وحسّادُه الشعراءَ للنيل منه وإلصاق التُّهم به، فكلما افتخر بشيء ألصقوا به ضده، فرووا الروايات والحكايات عن بخله وجبنه حين رأوه يتغنى بالكرم والشجاعة!

وسنورد لك أمثلة من شعره متطايرة في قصائده يتحدث عن الشعراء الآخرين:

يقول في لاميته الشهيرة لبدر بن عمار:

أَرى المُتَشاعِرينَ غَروا بِذَمّي ... وَمَن ذا يَحمَدُ الداءَ العُضالا

وَمَن يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَريضٍ ... يَجِد مُرّاً بِهِ الماءَ الزُلالا

ويقول في نونيته له أيضاً:

وَانْـــهَ المُشـــيرَ عَلَيـــكَ فيّ بِضِـــلّةٍ ... فـــالحُرُّ مُمْـــتَحَنٌ بـــأوْلادِ الـــزّنَى

ومَكايِـــدُ السّـــفَهاءِ واقِعَـــةٌ بِهِـــمْ ... وعَـــداوَةُ الشّـــعَراءِ بِـــئْسَ المُقْتَـــنى

لُعِنَـــتْ مُقارَنَـــةُ اللّئـــيمِ فإنّهَـــا ... ضَـــيْفٌ يَجُـــرُّ مـــنَ النّدامـــةِ ضَـــيْفَنَا

غَضَـــبُ الحَسُـــودِ إذا لَقيتُـــكَ راضِـــياً رُزْءٌ أخَـــــفُّ عليّ مِـــــنْ أنْ يُوزَنَـــــا

كما أن أبا الطيب عادة ما يقارن بين ما يقوله هو من بديع الشعر وبين ما قيل للممدوح قبله مما لا يراه مستحقاً لأي شيء، بل نجده في أولى قصائده لسيف الدولة يقول إنه غضب لأن صفاتِ سيفِ الدولة الكريمة لم تجد من يصفها وصفاً لائقاً، فيقول:

غَضِبْتُ لَهُ لمّا رَأَيْتُ صِفاتِهِ *** بلا واصِفٍ والشِّعرُ تهذي طَماطِمُهْ..

وانظر أيضا إلى قوله لأبي العشائر:

لم تَزَلْ تَسمَعُ المَديحَ ولكِنّ ***, صَهيلَ الجِيادِ غَيرُ النُّهاقِ

فالمُدّاح الآخرون مني بمنزلة الحمير من عتاق الخيل،

وكذلك لفتت انتباهي عند أبي الطيب هذه المقارنة بين جودة ما يقول من الشعر مع جودة خصال الممدوح وأفعاله، فانظر إلى قوله لسيف الدولة:

لكَ الحَمدُ في الدُرِّ الّذي لِيَ لَفظُهُ, *** فَإِنّكَ مُعطيهِ وَإِنّيَ ناظِمُ..

وكذلك قوله في آخر قصيدة نظمها:

وكم طَرِبِ المَسامعِ ليس يَدري, *** أيَعْجَبُ مِنْ ثَنَائي أمْ عُلاكَا..

كما أنه يوضح أن ممدوحه عالم بالشعر واللغة وأن إنشاد الشعر أمامه شرف لا يستطيعه كل الشعراء.. فتأمل قوله لسيف الدولة مثلا:

عَلِيمٌ بأسرارِ الدّيَانَاتِ وَاللُّغَى لهُ خَطَرَاتٌ تَفضَحُ النّاسَ والكُتْبَا.

ويعجبني هذا البيت من هذه القصيدة خصوصا:

وَما الفَرْقُ ما بَينَ الأنامِ وَبَيْنَهُ إذا حَذِرَ المحذورَ وَاستصْعبَ الصّعبَا؟

وقوله في قصيدة أخرى لأمير آخر:

لا تَجْسُرُ الفُصَحاءُ تُنشِدُ ههُنا بَيْتاً ولكِنّي الهِزَبْرُ البَاسِلُ..

وتأمل قوله البديع هنا:

مَلِـكٌ مُنْشِـدُ القَـريضِ لَدَيْـهِ يَضَـعُ الثّـوْبَ في يَـدَيْ بَـزّازِ

ولَنا القَـوْلُ وهْـوَ أدْرَى بفَحْـوا هُ وأهْـدَى فيـهِ إلى الإعْجـازِ

ومِنَ النّـاسِ مَـن يَجـوزُ عَلَيْـهِ شُـعراءٌ كأنّهَـا الخازِبَـازِ

ويَـرَى أنّـهُ البَصـيرُ بِهَـذا وهْـوَ في العُـمْيِ ضـائِعُ العُـكّازِ

كُلُّ شِـعْرٍ نَظـيرُ قائِلِـهِ فِيـ ـكَ وعَقـلُ المُجـيزِ عَقـلُ المُجـازِ

ولعل أوضح مثال على علاقته بالآخرين ما قاله في داليتيه المشهورتين لسيف الدولة، حيث يقول في أولاهما:

أجِزْني إذا أُنْشِدْتَ شِعراً فإنّمَا *** بشِعري أتَاكَ المادِحونَ مُرَدَّدَا
وَدَعْ كلّ صَوْتٍ غَيرَ صَوْتي فإنّني *** أنَا الطّائِرُ المَحْكِيُّ وَالآخَرُ الصّدَى..

ويقول في الأخرى:

خَليليّ إنّي لا أرَى غيرَ شاعِرٍ *** فَلِمْ منهُمُ الدّعوَى ومني القَصائِدُ
فَلا تَعْجَبَا إنّ السّيُوفَ كَثيرَةٌ *** وَلكِنّ سَيفَ الدّوْلَةِ اليَوْمَ واحِدُ

ويمكنك تدبر هذه المعاني في قصائده الأخرى وفيما نقلتُ لك كفاية، وأختم الحديث عن علاقته بالشعراء الآخرين بهذه الأبيات من لاميته التي أعتبرها شخصياً من أجود ما كتب المتنبي بل مما كُتب في الشعر العربي عموما:

أنَا السّابِقُ الهادي إلى ما أقُولُهُ ... إذِ القَوْلُ قَبْلَ القائِلِينَ مَقُولُ
وَما لِكَلامِ النّاسِ فيمَا يُريبُني ... أُصُولٌ ولا للقائِليهِ أُصُولُ
أُعَادَى على ما يُوجِبُ الحُبَّ للفَتى ... وَأهْدَأُ وَالأفكارُ فيّ تَجُولُ
سِوَى وَجَعِ الحُسّادِ داوٍ فإنّهُ ... إذا حلّ في قَلْبٍ فَلَيسَ يحُولُ
وَلا تَطْمَعَنْ من حاسِدٍ في مَوَدّةٍ ... وَإنْ كُنْتَ تُبْديهَا لَهُ وَتُنيلُ

أغلب هذه التأملات، ولكن بزيادة وتوسع أكثر هناك، كنتُ سجلتها خلال حلقات من البث المباشر، وهي موجودة على الإنترنت على العنوان:

https://youtu.be/t4d3oKVFJwk

وسأختم مقالاتي عنه بهذه القطعة التي ألقيتها بمناسبة ذكرى وفاته رحمه الله:

طمـــوحُ عُـــلاكَ يختصـــرُ الكرامَـــةْ وتـــاريخَ البطولـــةِ والشـــهامَةْ
وشِـــعرُك صـــارمٌ مـــن شـــفرتيه نمـــا عشـــقُ الســـيادة والزعامَـــةْ
فعلَّمنـــا أصـــول المجـــد فيـــه وقامـــت في الزمـــان بـــه القيامَـــةْ
وأنـــت طمـــوحُ دهـــرٍ مســـتفزٍ لـــكلّ كرامـــةِ وعُلُـــوِّ هامَـــةْ
فـــآثرتَ المعـــالي والعـــوالي وآثـــر غـــيرُك الأدنى الســـلامَةْ
وكـــم لـــك في زمانـــك مـــن ذمـــام فمـــا للدهـــر لا يـــرعى ذمامَـــهْ
وفي عينيـــك حـــزنٌ سرمـــديٌ كـــأن وراءه أمـــسى أمامَـــهْ
وأنـــت الطـــائر المحـــكيُّ فيـــه وأنـــت مطهّـــمٌ أرخـــوا زمامَـــهْ
تـــذمُّ أهيلـــه الفـــانين فيـــه وتُكـــرمُ بالمـــديح بـــه كِرامَـــهْ
ولـــم تقنـــعْ بـــدون النجـــم فيـــه ومـــا كلٌّ رأى نجمـــاً فرامَـــهْ
وأنـــت بعـــرش شـــعرك مســـتقلٌ نـــداماك المـــذاكي لا المدامَـــةْ
وأنـــت بشـــعرك الأعلى مقامـــاً ومـــن حفـــظ العـــلى حفظـــت مقامَـــهْ